★ أقدام عارية تمشي على الجمر المتقد ★

الأقدام الملتهبة

بقلم: هشام سليمان أبوعودة

بدأ الليل يُسدل أستاره على تلك القرية الإغريقية الوادعة «أيينا إيليني».. التي تعودت أن تهجع مع غروب الشمس، إذ ينسحب القرويون إلى بيوتهم المتراصة بانتظار مطلع يوم جديد... لكنهم هذه المرة لم يكترثوا للضوء المتخافت، ولا لنقيق الضفادع.. ولم تأسرهم هداة الليل فتدفع بهم إلى بيوتهم.

بدأوا في التجمهر من كل الأطراف إلى ساحة القرية.. إنه يوم «سانت قسطنطين» و«سانت هيلين».. وبعد لحظات قليلة سيبدأ الاحتفال.. احتفال ليس كالاحتفالات الدينية المعهودة.. بل إنه فريد من نوعه...

★ جاء لمشاهدة مهرجان «أيينا إيليني»، فقد سحره السائرون على الجمر الملتهب فشاركهم ★

لمدة ساعات طويلة ، يلتف عشرات الرجال والنساء في حلقات راقصة تتبع أقدامهم موسيقى عفوية يصدرها ذلك النوع الغابر من **القيثارات الإغريقية** التي بدأت مع فجر حضارة الإغريق ... يتقدم الراقصون وكل واحد منهم ممسك بأيقونته بين يديه .. حافي القدمين .. إلى أكوام من الفحم الملتهب المتجمر التي ما زال الشرر يتطاير منها في أوج عنفوانه ... ويمشي الجميع واحداً تلو الآخر على هذا السعير الملتهب كأنهم يغسلون أقدامهم في جدول ضحل من الماء .. بينما تعلو هتافات المئات من المتفرجين استحساناً وطرباً ودهشة .. وتُتمتم مئات الشفاه الأخرى بهمسات وجلة .. وتلتقي مئات أخرى من الأعين ولسان حالها يقول : أرأيت ما رأيت ؟! ... وبينما يحدث هذا كله ... يستخف الطرب بعشرات من المتفرجين ، فيسرعون إلى خلع نعالهم ويهرعون إلى « الجحيم الصغير » في لذة ، لينالوا حظهم من متعة السير على الجمر ...

وتستمر العملية في كر وفر وغزو للجمر الملتهب بالأقدام العارية ، حتى ينضب الشرر .. وتخفت حدة التوقد .. ولا يبقى من النار إلا ذبالة .. وبقية من دخان ورماد .

ومما يثير الدهشة أنهم يخرجون من نزهتهم على النار دون أن يمسهم أذى ... إنها معجزة .. !! .. هذا ما يعتقدونه .. إنها معجزة « سانت قسطنطين » و « سانت هيلين » .. إذ يعتقدون أن القوى الفوق عادية التي يتمتع بها هذان الاسمان توفر لهما الحماية الكاملة أثناء سيرهم على النار .. وبالإضافة إلى هذا .. يعتقدون أن من يمشي على النار في هذا اليوم وبه مرض .. سيزول منه المرض على الفور .

طقوس تاريخية

إن طقوس « الخلاص من الذنوب » والخلاص من الأمراض بواسطة المشي على النار ، كانت موجودة .. وما زالت في الحياة الإغريقية منذ عصور طويلة .. بل إنها عادة متأصلة في مجتمعات كثيرة تجدها باتساع خطوط الطول والعرض على ظهر كوكبنا الصغير ...

ويقول « بليني » و « إلدر » إنه في روما القديمة كانت هناك عائلات معينة تمشي على النار المتقدة حافية الأقدام دون أن ينالها أذى .. وكنتيجة لهذا أعفيت من الضرائب بأمر من **القيصر** .

أما في **أوروبا** ـ في العصور الوسيطة ـ فقد أقدم « **كاهن فلورنتيني** » على نفس العمل .. فكانت جائزته بأن تم الاعتراف به كأحد القديسين ، مثلما حدث بالضبط للقديس « **بيتر إغنيوس** » .

أما اليوم وبمقاييس الأمس ، فإن هناك آلافاً من البشر ممن ينتظرون مكافأتهم بلقب القديس ممن يمشون على النار كل يوم .. في الهند .. وإسبانيا .. وبلغاريا .. وسريلانكا .. وجزر فيجي .. بل في بعض الدول العربية ، وحتى في أميركا الشمالية والجنوبية على السواء .

إن الطقوس التي تتميز بكشف الجسد أو جزء منه للنار يمكن أن تكون أكثر من مجرد المشي على النار طلباً للإثارة أو لاستدرار نقود المارة .. ففي « **سومطرة** » مثلاً ، يوجد وسطاء روحيون .. وهم طائفة من المشعوذين الذين يزعمون بأنهم وسطاء لاستخراج « الأرواح الشريرة » من أجساد المرضى .. ويقوم هؤلاء الوسطاء بما هو أكثر من المشي على النار إذ يقومون بوضع الجمر المتقد على ألسنتهم وفي أفواههم ... وقد رأيت بأم عيني في إحدى الدول العربية نفر من طائفة « المهرجين » يقومون بالتهام قطع من الجمر المتقد وابتلاعها .. ويقال إنه يوجد في بلاد المغرب العربي من يقوم بمثل هذا العمل ...

★ أحد المشاركين في مهرجان « سانت قسطنطين » ★

★ في يوم المهرجان تقام الموائد من الحساء الذي يتم تحضيره خصيصاً من لحم شاة سوداء ★

★ شاة سوداء تم تزيينها قبل ذبحها ★

ولكن .. ما السر ؟

كلنا يعرف أهمية « **الكي** » في المجتمعات العربية .. وما زال الكي بالنار العلاج المفضل لبعض المعتقدين به كوسيلة علاجية لمختلف الأمراض في بعض أرجاء الوطن العربي إلى هذا اليوم .. وهي عادة آخذة في الزوال بعد انتشار الوعي الصحي .

ولكن هناك طائفة من البشر ممن يضعون الحديد المحمّى على جلودهم دون أن ينالهم أذى .. وهذا النوع من الطقوس الاحتفالية يختلف في مضمونه عن الكي رغم تشابه الوسيلة .. ولكن .. ما سر عدم إصابتهم بأذى رغم تعرضهم للنار المحرقة ، سواء وضعوها على أجسادهم أو ساروا عليها .

على مر السنين قام المهتمون بتبرير المشي على النار والكي دون أذى .. وحاولوا تقديم تفسير علمي مقنع يفسر هذه العملية .. وقد قيل في بعض الأحيان إن هؤلاء السائرين على النار يقومون بهذا العمل وهم في حالة « غيبوبة

وثنية» تزودهم بها «نشوة اللحظة».. بالإضافة إلى اعتقادهم المطلق بأن ما يفعلوه لن يعود عليهم بأي أذى.. وهذا في حد ذاته دافع نفسي بقطع الصلة بين المخ وبين بقية أعصاب سائر الجسد «لحظياً» فلا يسري أي إحساس بالألم.. وهذا تفسير معقول، ولكن مسألة الإحساس شيء.. ومسألة الإصابة بأذى شيء آخر.. إذ كيف لا يصيبهم أي ضرر من جراء ذلك..؟.. كيف لا تتأثر الخلايا في المناطق التي وصلتها النار ولا تصاب بأي عطب؟!.

هناك نظرية تقول إن «التعرق» الشديد في المناطق التي تصيبها النار يعمل كعازل بين النار وبين الأقدام...

وهناك من يقول إن الرماد نفسه يعمل عمل العازل بين النار والقدم... ولكن نار «فيجي» ليس لها رماد.. **ففي جزر فيجي** يستخدمون الصخور البركانية الحارة للمشي عليها أثناء الاحتفالات الخاصة بذلك.. وهذه الصخور ذات مسامات كثيرة مما يجعلها موصل رديء للحرارة.

أما التفسير اللامنطقي وغير الواضح من بين التفاسير، فهو تعليل المشي على النار بأنه نوع من الخداع البصري لا أكثر ولا أقل، تمارسه حفنة من مرتزقة العيش وبعض المشعوذين..

ولكن المتشككين سرعان ما عدلوا عن رأيهم عندما حاولوا تذوق اللعبة وتجربتها على أنفسهم.. ويدافع ممارسو هذه الأعمال عن أنفسهم بقولهم إن «أرواحاً» من عوالم أخرى تسكن في أجسادهم فتجعلها منيعة حتى على النار.. وكما يقول المثل العامي: «جاء يكحلها.. ففقأ عينها..»، فمسألة الأرواح هذه ليست أكثر من خرافة، وهذا مما يزيد التشكيك في أمرهم.. ويدفع من عدلوا عن رأيهم الأول فيهم إلى العودة والتمسك به.

العلم وتجربة السير على النار

ونظراً لطبيعة الأمر نفسه.. ولكونه ملتصقاً بطائفة من البشر في كل مجتمع دون غيرها.. فإن الاهتمام العلمي به كان وما زال قليلاً.. ولكن أحد العلماء من المشهود لهم بالاتزان العلمي رأى أن يقوم بتقصي حقيقة الأمر.. وهو العالم الألماني الغربي «**فريدبرت كارجر**، **وهو متخصص في الفيزياء النووية**.. وبعد تقصي ودراسة أصر على أن هذا الأمر لا ينطوي على أي خداع، بل هو عمل جاد وخطير ويستحق الاهتمام به.

فبصفته عضواً في **معهد «بلانك» للفيزياء النووية في ميونيخ**، قام كارجر بزيارة إلى جزر فيجي عام ١٩٧٤م، وقام هناك بتصوير جماعة يبلغ قوامها عشرون شخصاً يمشون على النار من سكان فيجي الأصليين وذلك في **جزيرة «فيتي ليفو»**.. وقبل أن يبدأ الاحتفال قام بطلاء طبقة كثيفة من نوع خاص من الطلاء الشديد التوصيل للحرارة على باطن قدميّ أحدهم.. ومن خصائص هذا الطلاء أنه يوصل الحرارة إلى القدم بشكل كبير، كما أن لونه يتغير بتغير درجات الحرارة، واللون الذي يكتسبه الطلاء ينم عن درجة الحرارة التي وصلت إليها القدم بالضبط.. وقام كارجر بتصوير الرجل مع تركيز اللقطات على القدمين حتى يتسنى له معرفة أي نوع من

★ يقوم الثنات بالرقص والجري على النار.. ويبدو الشرر متطايراً تحت أقدام هذا الراقص الذي تحرك أقدامه الجمر مع كل خطوة يخطوها ★

الخداع أثناء المشي على النار وذلك بإعادة عرض الشريط بالسرعة البطيئة.. وكانت دهشته بالغة عندما **وصلت درجة الحرارة إلى (٦٠٠) درجة فهرنهايت** كما تم التعرف عليها من اللون الذي تلون به الطلاء.. وكانت الدهشة أكثر عندما عرف أن درجة الحرارة في قدميّ الرجل لم تبلغ أكثر من «١٥٠» درجة فهرنهايت، كما أن قدميه لم يمسهما أدنى ضرر وكأنه كان يمشي على العشب الأخضر الندي لا على صخور بركانية ملتهبة... ولم يكن هناك رماد يقوم بعمل العازل.. ولم يقتنع كارجر بذلك.. بل قام بأخذ قطعة من الجلد الميت المتصلب من قدم الرجل ووضعها على الصخور الملتهبة، فتفحمت من فورها.

حاول كارجر بعد ذلك أن يقدم تفسيراً علمياً مقبولا لما شاهده.. فقال إن التبرير الذي يمكن قوله إنه ربما كان هناك نوع من العازل.. ولكني لا أدري ما هو.. أو أن هناك شيئاً يحدث من شأنه أن يخفف من وزن جسد الرجل أثناء مشيه على النار، وهذا بدوره يمنع التصاق أرجله بالنار لمدة طويلة نسبياً مما يجعل زمن تعرضه للنار في مجمله يبلغ عدة أجزاء من الثانية في كل خطوة مما يمكنه من الاحتمال أو حتى عدم الإحساس بالنار، وهذا الزمن في مجمله أقل من الزمن الذي قد تستغرقه الإشارة العصبية من المخ، لإصدار الأمر بالإحساس بالألم.. وممارسة هذا العمل لمدة طويلة والتعود عليه عامل آخر يضاف إلى هذه العوامل.. وقال كارجر: إن الفيزياء تقف عاجزة عن تفسير هذا الأمر.

ولكن ما تعجز الفيزياء عن تفسيره قد ينجح علم النفس فيه.. وقد قام بهذا الدور **الدكتور «ستيفن كين»** في بحث نشره في **مجلة** «Ethos» وهي المجلة العلمية التي تصدرها جمعية علم الأجناس السيكولوجي.. ويقول كين **إن المشي على النار يمثل حالة نفسية أكثر منها حالة مادية أو بيولوجية**.. ويعتقد بأن إيمانهم بأن ما يفعلونه لن يصيبهم بأذى هو ما يجعل أجسادهم تتغلب على العمليات الفسيولوجية نفسها.. وقد قضى الدكتور **كين** قرابة الستة عشر شهراً ما بين عامي ١٩٧٢م، و ١٩٧٦م، في دراسة الممارسين لهذه الأعمال في ست ولايات أمريكية من ولايات الجنوب، والكثير من هؤلاء يمارسون أعمالهم هذه أمام الكنائس ويقومون بأعمال أخرى مثل وضع الثعابين السامة على أجسادهم.. والتحدث من البطن.

وقد لاحظ كين أثناء تأدية هذه الطقوس الغريبة أن هؤلاء الذين يتعاطون فنون النار يوجهون لهب مواقد الكيروسين إلى أيديهم مباشرة وإلى وجوههم وإلى بقية أجزاء جسدهم دون أي أثر للإصابة حتى ولو بحروق بسيطة.. ويفسر هؤلاء مناعتهم ضد النار إلى «الأشباح المقدسة!!..» ويصفون شعورهم أثناء تأدية تلك المراسم الغريبة بأنه «خدر» مؤقت وبأنه لا يوجد شيء قادر على احتراق أجسادهم في ذلك الوقت حتى لو كان رصاصة..!!..

وقد عاد كين إلى عدة دراسات سابقة أجريت حول الموضوع.. فسّر بعضها الأمر على أن هناك حالات من «اللاوعي» بإمكانها أن تؤثر على قدرة الجسد على استقبال الاستجابات العصبية.. وفي إحدى هذه الدراسات التي أُجريت عام ١٩٥٩م، والتي شملت ١٣ شخصاً بالغاً ممن تعودوا على القيام بألعاب النار، تم تنويم كل واحد منهم مغناطيسياً، وأوحي لكل منهم بأن إحدى ذراعيه حساسة للمؤثرات الخارجية حساسيتها الطبيعية، بينما الذراع الأخرى تفوق حساسيتها الحد المعتاد.. لدرجة الألم الشديد إذا مسها شيء.. وكانت النتيجة مذهلة.. إذ إن ٩ من ١٣ شخصاً أصابت أذرعهم الحساسة جداً حروق كأي إنسان عادي عندما وضع الجمر عليها.. بينما اليد الأخرى لم تتأثر من الجمر.. وفي تجربة ثانية.. قيل لهم إن لهم ذراعاً ضعيفة الاحتمال وذراعاً أخرى أصابها الخدر.. وأثناء التجربة، تم تسجيل درجة حرارة كل يد على حدة أثناء وضع النار عليها.. وقد دلت التجربة على أن شيئين قد حدثا في اليد المفترض أنها خدرة.. إذ وجدوا أن الأوعية الدموية في هذه اليد قد ضاقت وهذا من شأنه تقليل سريان الدم في اليد، أما الأمر الثاني فهو أن إفراز **مادة الـ «Bradykinin»** قل إفرازها.. «وهذه المادة يفرزها الجسد [...] الالتهابات أو إذا دخل إليه سم وخصوصاً [...] الثعابين»... وهذان الأمران كان من شأ[...] تقليل كمّ الألم والضرر إلى حد بعيد أث[...] تعرض اليد للنار... وقد أوضحت [...] التجربة أن الإيحاء النفسي من شأنه أن يلع[...] دوراً هاماً في عملية المشي على النار وألعاب [...] الأخرى.. ولكن كين يعلّق قائلاً: «مهما [...] ذلك من الضرر.. فإن الجهاز العص[...] للإنسان له قدرة محددة على الاحتمال..»

★ حاملاً شمعة في يد.. وعصاً في اليد الأخرى.. يسير هذا الرجل على الصخور النارية الحمراء.. حافي القدمين، بمناسبة عيد (الإخصاب والشكر) ★

وجربوها بأنفسهم

ونتنقل إلى تجربة «سيريلانكا» في [...] المضمار.. وهي المشي على الجمر المتق[...] يقول ممارسو هذه المهنة هناك إن كل [...] باستطاعته أن يقوم بذلك العمل إذا تم ت[...] لذلك.. ولكن كيف يتم التأهيل؟.

يقولون إن الشخص يجب أن يصوم لمدة أسبوع أو أسبوعين كاملين عن الطعام تماماً .. ويقوم «بالتأمل» الروحي وممارسة رياضة اليوغا .. والاستحمام مرات عديدة خلال هذه المدة وتلاوة التراتيل الدينية .. والشرط الأهم من ذلك هو «التبتل» والامتناع عن معاشرة الجنس الآخر .. وإذا أمكن عدم الزواج مطلقاً .. !! .. ولا أعرف تفسيراً آخر إلا تفسير ذلك بأنه نوع من «تعذيب الجسد» وهذا من شأنه «الحفز النفسي» لعمل شيء قد يحس المرء بأنه قادر على عمله إذا مرت عليه تلك التجربة بسلام ... ويقول المثل العامي عندنا «ليس في كل مرة ... تسلم الجرة ..» . وهذا ينطبق على ممارسي المشي على النار أيضاً .. ففي بعض الأحيان لا تظهر الإصابة بالحروق إلا بعد فترة من الزمن ... فالجراح الأميركي ج . م فيجن الذي قام برحلة علمية في أواخر الستينات إلى جزيرة «بورا بورا» في البحار الجنوبية وشاهد هناك احتفالات السير على النار، قرر أن يشارك فيها شخصياً بتجربة السير حافياً على النار المتقدة في الجمر .. وقد كتب عن تجربته هذه في مجلة «Saturday Review» بضعة سطور أنقلها لكم هنا ... يقول :

«نظرت إلى الصخور نظرة وجلة في البداية .. ثم غالبت خوفي وتقدمت .. وخطوت فوق النار .. شعرت بالحرارة تسري في ساقيّ .. ولكن قدماي كانتا باردتين .. وكانت العملية محتملة إلى حد ما .. ومشيت باعتدال على صخور الجحيم هذه .. ولكن عيناي كانتا عليها .. وسرت بغير هدى ولم اتخذ لنفسي طريقاً محدداً .. وكنت أشعر بملمس الصخور النارية كأنها مصنوعة من ورق الصنفرة .. وشعرت بوخزات خفيفة في باطن القدم .. وبعد أن اجتزت الصخرة الأخيرة لم تتمكن عيناي من رؤية أحد إذ شعرت بنوع من غشيان البصر .. لكني ما زلت امتلك حواسي .. وشعرت بيد تمتد إليّ بكوب من الماء .. وبعد لحظات استطعت أن أرى ما حولي وكأني أفقت من نوم خاطف ... بعد ذلك انتابني شعور بالنشوة العارمة .. كان ما قمت به لم تقم به الأوائل ... ولكن ما إن مضت قرابة الربع ساعة ، حتى بدأت في إدراك حقيقة الأمر .. وبدأ الألم يسري في ضلوعي .. من الخصر قدماي حتى ذؤابة أنفي .. وأدركت أن الجمر قد ترك بصماته على باطن قدماي .. ولكن أوان الندم كان قد فات ..» .

وخلال السنوات الماضية كتب الرحالة «ويلارد برايس» بأنه شاهد أحد السياح الأميركيين في محاولة له للسير على النار في إحدى جزر فيجي .. وقد حاول هذا السائح تجربة الأمر، فخطا على تلك الصخور .. وما كاد يتم خطوته الثالثة حتى علا صراخه من الألم وأسرع إلى بر الأمان .. ولكن بعد أن احترقت قدماه .

هذا هو شأن من يقدمون على هذه الصنعة في محاولة منهم لسبر أغوارها وإرضاء غريزة الفضول البشرية في نفوسهم .. ولكن ما يحدث للهواة قد يحدث للمحترفين أحياناً .. ففي قرية «ساندبور» الهندية عام ١٩٧٢ م، قام خمسة عشر شخصاً من طائفة «كالي» الوثنية [وكالي هذا إله مزعوم من آلهتهم .. اختصاصه الخلق والتدمير ..] .. قاموا بالمشي على النار .. والأمر ليس فيه غرابة .. فقد قاموا بمثل هذا العمل آلاف المرات .. ويقولون إن كالي يحميهم من تأثير النار .. ولكن ليس هذه المرة .. إذ يبدو أن كالي كان مشغولا عنهم بأمر آخر .. أو أنه كان نائماً .. فأصيب عشرة منهم بحروق خطيرة مؤلمة .

ويبدو أن عملية السير على النار قد أثارت غريزة التحدي عند بعض العلماء لاستجلاء حقيقتها ، إذ إن الفيزيائي فريدبرت كارجر يستعد للقيام برحلة إلى جزر فيجي من أجل ذلك الغرض وسوف يأخذ معه أجهزة إلكترونية حديثة يوصلها بأقدام السائرين على النار وبقية أجزاء أجسادهم .

قضاة النار

بعض الناس يمارس هذه الطقوس بهدف وثني خصوصاً في المجتمعات الوثنية القديمة .. وهذا يفسر انتشارها في المناطق التي سبق ذكر بعضها في هذا المقال .. فبعض الشعوب تمارسها كجزء من ديانتها ... بينما تقوم بها شعوب أخرى كجزء من العلاج .. إذ يعتقدون أن النار من شأنها طرد الأرواح الشريرة من الجسد الذي أصابه المرض بالذبول مما يعود عليه بالصحة والعافية .. وتمثل النار جزءاً لا يتجزأ من مراسم الاحتفالات بجميع أنواعها عند القبائل البدائية في إفريقيا وجنوب شرقي

* في جزر فيجي .. رقصة جماعية يؤديها مجموعة من رجال القبائل .. على صخور بركانية ملتهبة .. ثم تسخينها إلى مئات الدرجات ★

آسيا . . وهنود أميريكا الشمالية وهنود غابات الامازون وقبائل الأبورجيني « سكان أستراليا الاصليين . . » . . والرقص بالحراب والرماح حول النار المتأججة بعد مغرب كل شمس منظر متكرر عند جميع هذه الشعوب . . . ولا يخلو الأمر من « ساحر القبيلة » مختبئاً خلف قناع زاهي الألوان ويتوسط الجموع الراقصة حول النار .

وهناك شعوب تمارس السير فوق النار ـ لا الرقص حولها ـ كجزء من ممارسة الرجولة ـ أو بتعبير أدق ـ إثبات الرجولة . . فالجلد والصلابة من صفات الرجال . . وأكثر الرجال شجاعة ورجولة هو القادر على احتمال أقسى أنواع التعذيب الجسدي . . وكثير من الشعوب التي لم تصلها حضارة القرن بعد ، ما زالت تستخدم هذه العادة للحكم على البالغين بأنهم قد تخطوا مرحلة الصبا وانتقلوا إلى مصاف الرجال . . وعادة ما يتم ذلك في احتفال كبير بحضور أهل القرية أو القبيلة جميعاً . . وقد تكون له مواسم ومراسم معينة تختلف من مكان إلى مكان ومن قبيلة إلى أخرى .

وأذكر أن والدي قد وصف لي أمراً كان يحدث عندنا في **فلسطين** . . وهو عادة المشي على النار أيضاً . إذ كانت تمارسها بعض القبائل من سكان البادية وخصوصاً في منطقة صحراء النقب والأجزاء المتصلة بصحراء سيناء . . ويطلقون على هذه العادة اسم « **البشْعة** » . . وتستخدم هذه العادة في الأمور القضائية بين أفراد القبيلة أو القبائل المجاورة . . فإذا حدث ما يستوجب القضاء بين متخاصمين ، يلجأ الاثنان إلى قاضي القبيلة . . وهو في المعتاد شيخها الكبير . . فيقوم هذا بإيقاد النار بالحجم الذي يراه مناسباً ، فالأمر متروك لتقديره . . وبعد أن يهدأ اللهيب ويتقد الجمر . . يأمر المدعى عليه بأن يسير فوق الجمر الذي ما زال في أوج عنفوانه بعد أن يخلع نعليه . . فإذا صرخ أو بانت على سريرته ملامح الألم . . صدر الحكم عليه . . وإن احتمل وصبر ولم تحترق قدماه . . وأكمل المشوار بجلد

وهذا الأمر ليس قاصراً على نوع معين من القضايا ، بل إن تطبيقه يشمل كافة أنواعها مهما كان حجمها . . وهذا النوع من المحاكمة يمثل أعلى رتب المحاكم . . فإذا لجأ القاضي إلى « البشْعة » كان معنى هذا أن القضية استعصى حلها بالطرق المعتادة . . ولا أدري إن كانت هذه العادة مستمرة إلى الآن أم أنها اندثرت بتغير الأحوال . . ولكن العادات الشوارثة منذ آلاف السنين من الصعب زوالها خلال حفنة قليلة من السنين . . وإذا بحثت ـ جاداً ـ ستجد أن هناك بعض من يطبقها .

النار والإنسان

وللنار مكانة خاصة كما أوردنا عند كثير من الشعوب . . وخصوصاً تلك التي ما زالت في جاهليتها سادرة . . ولكن معظم الحضارات والشعوب القديمة كانت تنظر إلى النار نظرة استثنائية .

وقد وجدت حديثاً دلائل عديدة على أن إنسان أستراليا الأول استطاع ترويض النار منذ قرابة المليون ونصف المليون عام . . ويعتقد الكثير من علماء الأجناس أن الإنسان تعلم أول ما تعلم أن يحتفظ بالنار موقدة ، قبل أن يتعلم كيف يشعلها بمدة طويلة .

وبعد أن أصبح استمرار الحياة مرتبطاً باستمرار النار ، ارتفع شعار « النار الخالدة » . . . ففي روما القديمة ، كانت إذا خمدت النار الخالدة في معبد « فستا » ـ إلهة النار ـ توقف كل نشاط في المعبد . . فالرابطة بين السماء والأرض عند الرومان تمثلت في النار .

كما اعتاد **هنود « الأوساج » الحمر** الاحتفاظ بالنار موقدة في كوخ زعيم القبيلة . . واشتعالها المستمر سيجلب لهم الصحة والعافية كما يعتقدون .

أما عند **قبائل « التونجا » في جنوب إفريقيا** فإن إشعال النار محظور إلا في كوخ زعيم القبيلة وكانت عملية الإيقاد لا تتم إلا على يد الساحر . . وكان محظوراً على أي أحد أن يأخذ منها أي شعلة . . فالساحر وحده المسموح له بذلك .

أما أغرب القوانين التي تتعلق بالنار ، فهو قانون مغولي يمنع الناس من التبول فوق رماد النار إذا كانت هناك بقية من نار تحت الرماد ما زالت مشتعلة .

ويقول عالم الأجناس « والتر هوف » إن هناك مجتمعات كانت تعتبر « سرقة النار » جريمة لا تغتفر عقابها الموت . . وفي مجتمعات أخرى كانت جريمة سرقة النار تدل على عدم نقاء عرق مرتكبها .

ويعد الأنثروبولوجيون أن اكتشاف الإنسان لقدرته على التحكم في النار واستخدامها لمنفعته هي إحدى القفزات التكنولوجية الثلاث التي قفزها الإنسان الأول . . أما القفزتان الأخيرتان فهما اكتشاف **الزراعة واللغة** . . وأصبحت النار الجديدة رمزاً للنقاء والطهارة والتجدد . ثم تبع ذلك طقوس إطفاء النار وإعادة إيقادها من جديد . . **ففي إفريقيا الوسطى وبعد ولادة طفل ، كان يُطفأ بيت النار ثم يُعاد إشعاله من جديد رمزاً لبدء حياة جديدة . .**

أما في حفلات الزفاف في **سيبيريا** ، فإن على العريس أن يوقد ناراً جديدة في بيته بفحم جديد قبل الزفاف . . ولا يُسمح بالفحم القديم لإشعال النار .

وفي **ممالك أوغندا القديمة** عندما كان يموت الحاكم كان يقول أتباعه « لقد انطفأت النار » وكانوا يقومون بعد ذلك بإطفاء النيران في كل الأرجاء . ولا يعاد إيقادها إلا بعد تولي الحاكم الجديد .

وبعد . . فإن قصة الإنسان مع النار ما زالت باقية . . . ومَن منا مَن لا يخشى النار ؟! . . فهي تلتهم هنا في الولايات المتحدة آلاف المنازل كل عام . . . وعلى الأقل . . إذا جاء يوم شديد القيظ انطلقنا إلى البحر نرتمي في أحضانه . . أو نلجأ إلى مكيفات الهواء . . وهذا شيء طبيعي ، فقدرة الإنسان على احتمال الحرارة محدودة . . أما أن يرتمي بعض الناس في أحضان النار طوعاً ويسيرون على الجمر الذي تبلغ درجة حرارته ٦٠٠ درجة فهرنهايت دون الإصابة بأذى . . . فهذا هو الذي لا نفهمه .